الاستاذ بن موفق بومدين

جامعة الجزائر 2

التأثير الحضاري المصري على بلاد النوبة خلال الأسرة الثامنة عشرة

(1550ق م- 1295ق م)

تشير الشواهد الأثرية على أن بلاد النوبة خلال فترة الدولة الحديثة قد شهدت اندماجا كبيرا بالمجتمع المصري ، و ذلك تحت حكم الإدارة المصرية ، حيث عرفت تأثير اقتصادي و الذي شمل الجانب الزراعي ، إذ تحسنت أنظمة الري و توفير المياه بفضل الرقابة الدائمة على ترميم و تسريح قنوات سنوسرت الأمر الذي يشجع الاهتمام بالجانب الزراعي ، كما أن مجهودات الإدارة المصرية سابقا أو في عهد الدولة الحديثة كانت تسعى جاهدة على انضمام بلاد النوبة إلى أقاليمها ، و هذا ما دفع بالكثير من المصريين إلى النزوح إلى الجنوب من بينهم فئة التجار الأمر الذي انعكس على الحركة التجارية في الجنوب ، كما لا ننسى بأهمية بلاد النوبة من حيث الثروات المعدنية كالذهب و كذلك تعتبر همزة وصل بين مصر و إفريقيا الشرقية ، ورافق التأثير السياسي و الاقتصادي تأثير ديني ، لأن الإدارة المصرية رأت لابد من الاهتمام بالجانب الديني (انتشار الديانة المصرية) الذي يرافق الــتأثير السياسي الذي تراه غير كافيا ، و على كل حال فإن السلطة المصرية عملت بتشييد الكثير من المعابد و القصور مخصصة لعبادة الآلهة المصرية بشكل خاص . و هي في الحقيقة لا تقل شأنا لا من حيث الحجم و التصميم على المعابد الموجود في مصر.

بعد اعتلاء أحمس الأول عرش مصر سنة 1550 ق م -الذي يعد أول مؤسس للأسرة الثامنة عشرة ، و أول ملوك الدولة الحديثة - عرفت فترة حكمه بالحروب سواء حروبه من أجل تحرير من الهكسوس و كذلك من الجهة الجنوبية للحدود المصرية (1) و نشير هنا للحملات العسكرية التي شنها أحمس الأول ضد بلا بلاد النوبة التي عرفت أثناء انشغال السلطة المصرية في حروبها ضد الهكسوس في الشمال ، تمرد انشقاق على

السلطة المركزية المصرية و على أية حال فإن أحمس الأول شن ثلاث حملات عسكرية على بلاد النوبة قصد إعادة السيادة المصرية فأثناء الحملة الأول استطاع الفرعون من فرض سيطرته على البلاد ، و أثناء رجوع إلى مصر ، تمكنت مجموعة مناوئة لسيادة المصرية في بلاد النوبة من استغلال فرصة غياب الملك ، فقامت بالتمرد من جديد تحت قيادة تيتيان ، مما دفع بالفرعون بالقيام بحملة عسكرية ثانية للقضاء على هذا العصيان .و بالفعل نجح في ذلك من إعادة توطيد السيطرة المصرية على بلاد النوبة (2) .

و في الحقيقة نستطيع تحديد مدى اتساع النفوذ المصر في بلاد النوبة ، و لكن هناك إشارات من قبل الباحثين تتفق بأن أقصى نقطة وصل إليها النفوذ المصري منطقة الجندل الثاني ، كما أن الملك أحمس الأول كلف توري قائد و حاكما بلاد النوبة.

و تميزت العلاقات المصرية النوبية في بداية عصر أمنحتب الأول 1525-1504 ق م بالاضطرابات ، حيث إستغلت بلاد النوبة فرصة تغيير الحكم وما ترتب عنها من حركة تغيرات في المناصب الإدارية ، من خوض حركة انفصالية من جديد من أجل التخلص من نظام الضريبي المفروض على سكان النوبة من قبل السلطة المركزية المصرية.

و على ما يبدوا إن هذه الأوضاع استدعت بتوجيه حملة عسكرية بقيادة أحمس ابن نخبت (3) نحو بلاد النوبة الذي يشغل منصب مساعد الملك أمنحتب الأول (4)، و انتهت هذه الحرب بسرعة و هدأ النوبيون مرة أخرى ، التي أصبحت فيما بعد إحدى المقاطعات الإدارية تابعة للسلطة المصرية ، و تدخل في صلب الحدود المصرية الحقيقية (5) كما أصبح حاكم بلاد النوبة يطلق عليه اسم ابن الملك الذي يشرف على الأراضي الجنوبية ، كما اعتبرت بلاد النوبة جزء من التراب المصري يجري فيها كما يجري في جل أجزاء مصر(6).

ويكمن دور تحتمس الأول في بلاد النوبة في شن حملة عسكرية من اجل مد الحدود الجنوبية إلى منطقة تقع على مقربة من الجندل الرابع وهي المنطقة التي كان يراه المد الطبيعي للحدود المصرية الجنوبية ،وهذا حسب النقش الحجري الذي عثر عليه في مواجهة جزيرة تومبوس(7) الذي ينص "أن الفرعون " ......اخضع رئيس كوش ،

وقبض بيده على الزنوج ،وربط حدوده على ضفتي النهر ،حتى انه لم يكن رجل واحد من بين تلك الشعوب ذات الشعر القصير بقادر على أن يهاجم جلالته ، ذلك لأنه لا أحد من كل هؤلاء الذين حاولوا مهاجمته كتبت له النجاة ، و قد سقط كل البدو النوبيين بالسلاح ، و تناثرت جثثهم أشلاء على أراضيهم ، فأصابها العفن ، و انتشرت رائحتها النتنة في كل الوديان و السهول ، وغدت أجسادهم طعاما للصقور التي كانت تحملها من مكان لآخر ، و لم تجرؤ بعد ذلك أية قبيلة تعادي جلالته أن تقدم أمام قلعة الحدود ، لأن مجد جلالته قد أبهرهم ، مثل فهد صغير وسط قطيع هارب ، فمد جلالته سلطانه على حدود الأرض ، وحكم القطرين ، و كان سلاحا قويا في يده ، لا يجد لنفسه ندا في واحة الوغي ينازله ....(8).

و في إطار انضمام بلاد النوبة إذ عمل تحتمس الأول على تطهير القناة سنوسرت التي تسير من عمليات التبادل التجاري بين مصر وبلاد النوبة ويرى المؤرخ إمري أن في ذلك شيء غريب لأننا نتصور انه من المفروض أن تكون القناة صالحة لمرور الأسطول بعد الحرب ،ويعلل ذلك بان السفن قد بنيت في النوبة ،جنوبي الجندل الأول في بداية الحرب ،وبعد انتهاء الحرب اعتبرت هذه السفن ضرورية للاستعمال في مصر نفسها (9). كما قام تحتمس الأول بتشييد الكثير من الحصون في تومبوس ومركز الإمارة المصرية ببلاد النوبة وهي منطقة بوهن بإعادة ترميمها وبناء جدران حصونها وكذلك حصون كوبان و ايكور بالنوبة السفلى .

وتجدر الإشارة إلى أن مرور الجيوش في النوبة السفلى في طريقها إلى ساعات القتال في الجنوب ،إلى جانب ازدياد إعداد المستوطنين المصريين المتصلين بالجيش والمحطات التجارية ،سرعان ما كان له الأثر على اعتقادات وأسلوب عيش أهل المنطقة المحليين (10).

أما في عهد تحتمس الثاني الذي شهد اضطرابات في أرجاء أقاليم مصر ،من بينها إقليم بلاد النوبة نشبت ثورة مما دفع بسكان مصر إلى الهروب بقطعانهم نحو التحصينات التي شيدها تحتمس الأول (11) وهكذا أبدا تحتمس الثاني حكمه بالقضاء على الثورة التي عرفتها بلاد النوبة ،وبالضبط بالقرب من الجندل الثالث وهذا حسب ما أرخته لوحة

النصر التي تعود إلى فترة حكم تحتمس الثاني ،حيث أقيمت على الطريق بين السودان وفيلة وتنص هذه اللوحة على تمرد الجنوب ونجاح الملك في القضاء عليها .

أما فيما يتعلق بالانجازات في بلاد النوبة فانه تم تشيد معبد صغير في منطقة "الدكة "حيث عثرت البعثات الأثرية التي عملت بمنطقة النوبة السفلى على بعض الآثار تحمل اسم تحتمس الثاني في دكة ،كما عثر أيضا على اسمه بجوار أبيه في منطقة الجندل الثاني (12).

ومن ناحية أخرى ،فقد كان للملكة حتشبسوت منشات معمارية وأثار بالنوبة أهمها وأكبرها مر العبد الجميل التي شيدته في بوهن ومع انه قد أصبح حاليا في حالة يرثى لها ،إلا انه لا يزال يحتفظ بمعالمه المعمارية ومناظره الملونة التي يمكن اعتبارها من أجمل ما عثر عليه في بلاد النوبة.

ويلاحظ ظهور أسماء تحتمس الأول وتحتمس الثاني على جدران المعبد وهذا ما يدل على أن بداية الإعمال في المعبد كانت قبل تولي الملكة العرش إلا أن البناء الأساسي قد شيد في عهدها (13) ، كما شيدت الملكة حتشبسوت معبد أخر بالنوبة كان يقع في فرس ،وكان مخصصا لعبادة وتقديس حتحور(14).

في عصر تحتمس الثالث حيث تمتعت بلاد النوبة بالاستقرار و الهدوء ،وتولى منصب ابن الملك "نحي" الذي أدارها بحكمه ،واكتفى بجمع الجزية التي تكاد تكون مقصورة على الذهب ،الذي بلغ 822 ألف دبنا ويشير محمد بيومى مهران إن أعمال تحتمس الثالث في بلاد النوبة اقتصرت على حماية مناجم الذهب(15).

وعلى أية حال ،فإننا نرى أن عصر الفرعون تحتمس الثالث في بلاد النوبة كان متميزا عن غيره من عصور فراعنة آخرين ،وبصرف النظر عن أنشطة الفرعون العسكرية بالنوبة ،كما اهتم الملك بهذه المنطقة (بلاد النوبة) وخاصة من ناحية المعمارية ،سواء في إقليم النوبة السفلي أو في النوبة العليا (16).

كما ينسب للفرعون نفسه بناء معبد صولب الذي على مسافة 220كيلوميترا جنوبي وادي حلفا وكما يشيد معبد آخر في جزيرة صاي التي تقع جنوبي بوهن وكذلك في بوهن في حد ذاتها ودكا وأرجو وكوبان (17).

وفي إطار تمصير بلاد النوبة حيث قام تحتمس الثالث سياسة رشيدة تمثلت في اخذ بعض من أبناء الأمراء وحكام بلاد النوبة بهدف تنشئتهم على الطريقة المصرية مع كبار رجال الإدارة في مصر حتى يتشبعوا بالثقافة المصرية ويكنوا لها الحب والصداقة ،ويمارسوا الحياة المصرية في القصور الملكية التي دائما تحبب لهم الإقبال على الحياة في مصر ،وتتيح لهم فهم حضارتها الرفيعة المترفة ،وتيسر على الملك الفرعوني ان يجعل منهم حكاما في الأقاليم الشرقية والجنوبية مدركين قيمة الوحدة مع مصر وبلاد النوبة وفي هذا الصدد انشأ الفرعون في طيبة مركز الثقافات العالمية وقت ذاك ،مدرسة يتعلم فيها ولى العهد مع أبناء كبار رجال الدولة فضلا عن أبناء الأمراء الأسيويين والنوبيين الذين يقاربونهم في السن ،ليشبوا جميعا وقد ارتبطوا مع ولي العهد برباط من المودة والصداقة أملا أن يخدموه في مستقبل الأيام خدمة الصديق لصديقه ،وهي دون شك أفضل بكثير عن خدمة العبد لسيده (18).

كما يمثل اغلب الأمراء النوبيين الصغار أعضاء في هيئة العسكرية وبعد التكوين المصري يتولوا مناصب إدارية في مساعدة نائب الملك في بلاد النوبة ومنهم من يتجه نحو العمل العسكري كضابط في الجيش الفرعوني (19).

أما بالنسبة لأهالي بلاد النوبة فيبدوا أنهم اندمجوا في الحياة الاجتماعية المصرية و أدركوا معنى السيادة المصرية هذا ما تولد عليه نوع من الهدوء الذي عم سائر بلاد النوبة لسنوات طويلة وهذا التغير الذي حدث على المجتمع النوبي كان أيضا ناتجا من مجهودات الملوك الفراعنة لدولة الحديثة على تمصير بلاد النوبة بشتى الوسائل من اجل إدماج هذا المجتمع مع المجتمع المصري ،ولعل من أهم الوسائل التي وظفها الفراعنة هو نقل أسس الديانة المصرية إلى بلاد النوبة وذلك بالاهتمام بالمنشات المعمارية بتشييد المعابد والقصور المحقق لعبادة المعبودات المصرية خالصة وأحيانا تكون مدمجة بالديانة بلاد النوبة الأمر الذي وجد قابلية إلى حد بعيد عن المجتمع النوبي وعلى أية حال فان

إستراتيجية الإدارة المصرية في بلاد النوبة أنها ركزت على الجانب الديني الذي يدعم العمل السياسي من اجل إخضاع وإدماج أهل النوبة داخل المجتمع المصري .

أما أمنحوتب الثاني حيث أستطاع من وصول الحدود الجنوبية لمصر إلى مشارف جندل الرابع، و من ناحية أخرى ، فقد كان ل أمنحتب الثني أعمال معمارية و نقوش في مناطق بالنوبة ، و من ذلك قيمه بإضافة بعض العناصر المعمارية إلى معبد أبيه تحتمس الثالث في عمدا . كما قام باستكمال بناء المعبد الذي كان أبوه يشيده في كلابشة ووجدت مناظر تمثل أمنحتب الثاني تتصدر واجهة المعبد ، و الذي كان ممثلا على هيئة إله الشمس و هو إله يلائم بلاد النوبة(20) .

وعلى العموم فإن فترة حكم الفرعون أمنحتب الثاني هادئا ، و على ما يبدو فقد واصل سياسة إسلافه نحو تمصير النوبة ، متبعا الوسائل السياسية و الاجتماعية و الدينية التي نهجرها من قبله و على ما يبدوا فقد استمرت بلاد النوبة في ولائها لمصر على حكم أواخر ملوك الأسرة الثامنة عشر ، و اكتفى أمنحتب الثالث و أمنحتب الرابع و سمنخ كارع و حورام حب بالمنشآت المعمارية و عبارة في بناء المعابد .

إستنتاج

ومنذ مطلع عصر الأسرة الثامنة عشرة بشكل خاص ،ونحن نلمس إصرارا واضحا من الفراعنة نحو إخضاع النوبة ودمجها مع أقاليم مصر الجنوبية ، واسباغها بالطابع المصري ،بكل عزم وبمختلف الطرق حتى نجحوا في ذلك إلى حد بعيد وصل إلى درجة التي أطلق عليها تمصير النوبة ،وهو الأمر الذي أكدته لنا شواهد الآثار ،واتفق عليها المؤرخون والعلماء .

ولكن لماذا إصر الفراعنة بهذا العزم في جهودهم للسيطرة على مناطق النيل الأعلى وضمها إلى الإمبراطورية المصرية ،بالطبع كانت لديهم الأسباب القوية لذلك وبخاصة أن تشييدهم للقلاع و الحصون والمعابد وكذا المستوطنات المصرية في النوبة إضافة إلى تجهيز الحملات العسكرية وتزويدها بجنود مدربين ومدججين بالعتاد والسلاح ،وتنظيف

القنوات والمجاري المائية أمام الملاحة النهرية بمنطقة الجنادل كان كل ذلك يكبد خزائن الفراعنة الكثير جدا .

إذن فقد كان هناك دوافع حقيقية تستحق كل ذلك ويمكن للباحث أن يحدد منها ما يراه واقعيا فمن ناحية كان ضم النوبة لمصر ودمجها مع الأقاليم كفيل بالسيطرة على منابع الفتن والثروات التي كثيرا ما سببت لهم إزعاجا ومن ناحية ثانية كانت هناك الضرائب في شكل منتجات الحقول والماشية التي يمكن الحصول عليها من فلاحي النوبة ،ومن ناحية ثالثة فقد كان هناك ماله أهمية اكبر من ذلك بكثير وهو مناجم الذهب الكبيرة ذات الإنتاج الوفير إضافة إلى منتجات أخرى هامة مثل العاج والخشب الابيوس وريش النعام وبيضه وجلود النمر والماشية والعبيد .

وهكذا فقد كان من الضروري أن تخضع هذه المنطقة وكل الطرق الصحراوية المؤدية إليها خضوعا تاما للإمبراطورية المصرية ،وهو الأمر الذي تمكن فراعنة الأسرة الثامنة عشرة من تحقيقه ،حتى وصلت حدودهم الجنوبية طبقا لشوهد الثار ،إلى أقصى مدى لها على مر التاريخ وذلك أيام تحتمس الثالث وخليفته أمنحتب الثاني ،حيث امتدت إلى مشارف الجندل السادس (112 كيلومتر تقريبا شمالي الخرطوم).

ونود أن نبدي ملاحظة حول الحملات العسكرية التي كان يشنها الجيش المصري على الجنوب (سواء أن كان ذلك بقيادة الفرعون نفسه أو بأمر منه) ،حيث لاحظنا من خلال تكرارها أن معظمها وليس كلها كانت موجهة ضد القبائل التي كانت تقطن الصحراء أكثر من توجيهها إلى سكان الوادي حيث يبدوا أن إثارة المتاعب كان غالبا ما يصدر من سكان الصحراء الذين يصعب تقويمهم فيما يبدو، إلا أن طريق الدفع بقوات عسكرية في صورة حملات تأديبية ،كانت سياستها على ما يبدو قائمة على استخدام الشدة والقسوة إلى درجة القتل والتدمير وإذا ما نظرنا إلى سكان وادي النيل بمناطق النوبة في نظرة مقارنة مع إقرانهم من سكان الصحراء والكهوف المتاخمة فسنلحظ مدى الفارق الشاسع بين معاملة الفراعنة لكل منها فبينما كانت أفعال البدو تقابل بعقوبات رادعة ،فقد كان اقرأنهم في وادي النيل تطبق عليهم السياسة الملكية المصرية التي سنها الفراعنة للتأثير في هؤلاء السكان ،وإسباغهم وأرضهم بالطابع المصري تمهيدا لتمصيرهم وهكذا فقد كانوا هم من

شيد لهم الفراعنة المعابد والمنشئات وسقوهم من رحيق الحضارة المصرية وصلوا إلى حد خلعوا فيه ملابسهم وأغطية رؤوسهم التقليدية ليستبدلوها بملابس زاهية وشعور مستعارة ،ووصل الأمر إلى عادات الدفن أيضا ونمت منتجاتهم الزراعية والصناعية ،وتبدلت أنماط حياتهم وأفكارهم ومعتقداتهم ،وعلى سبيل المثال فلم يكد عصر تحتمس الثالث يبدأ حتى اختفى الشكل المحلي المعروف للمقابر النوبية ،وانتشرت الطرز المصرية كالمقابر المنحوتة في الصخر أو تلك التي يعلوها أهرمات صغيرة على غرار مقابر دبر المدينة بالبر الغربي بالأقصر والباحث في مخلفات حضارة النوبة أيام الدولة الحديثة يعثر على كثير من التوابيت والتماثيل أوشبتي (المجاوبين) ، و الجعارين و رسوم المقابر والأسماء لأصحابها النوبيين ، إلى غير ذلك من عناصر مصرية .

الهوامش :

1- وولتر إمري : مصر و بلاد النوبة ، ترجمة تحفة حندوسة ، مراجعة عبد المنعم أبوبكر ، القاهرة 1970، ص 179.

2- محمد بيومي مهران : تاريخ السودان القديم ، الاسكندرية 1994 ، ص 260-261.

3- James,T,E,H. Egypt from the expulsion obthe hyksos to amenophis cah , 2parti1965,p27.

أنظر سليم حسن ، مصر القديمة ،الجزء العاشر ، مكتبة الأسرة القاهرة ، 2000، ص 314.

4- أحمس ابن نخبت يشغل منصب مساعد الملك امنحتب الأول أو طلق عليه اسم ابن الملك ، كما انه تولى قيادة الحملات العسكرية في الجنوب .

5- تتضمن هذه المقاطعة محافظة أسوان حليا .

6- محمد بيومي مهران : المرجع السابق ، ص 263-264.

7- و هي منطقة تقع على بعد 320كلم جنوبي وادي حلفا.

8- نفسه ، ص 14.

9- سيد توفيق أحمد : معالم تاريخ و حضارة مصر الفرعونية ، القاهرة 1987، ص269.

10- وولتري أمري : مرجع سابق ، ص 182.

11 - نفسه ، ص187.

12- ابراهيم محمد بيومي : تاريخ مصر ، كلية الأداب ، القاهرة ، 2006 ، ص 18.

13- شيتندورف سيل : عندما حكمت مصر الشرق ، ترجمة محمد العزب موسى ، مراجعة محمود ماهر طه ، القاهرة 1990، ص 59.

14- إمري ، مرجع سابق ، ص 192.

15- محمد بيومي مهران : مصر ، الجزء الثالث ، الاسكندرية 1988، ص 262.

16- تم تأسيس بالنوبة السفلى إمارة واوات و بالنوبة العليا إمارة كوش

17- Arkell,A.J.,AHistory of the sudan from the Earliest Times to 1821, london 1955, p32-36

18-. محمد بيومي مهران ، تاريخ السودان القديم ، الإسكندرية 1994.، ص 274

19- كب : هي هيئة عسكرية في نظام القصر الملكي ، و يعود تأسيسها إلى الدولة الحديثة ، و كانت مكلفة بتربية أبناء أمراء بلاد النوبة

20- محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص 274-275.